المحاضرة السابعة: النقد النفسي

1. مفهوم النقد النفسي:

ارتبط ظهور المنهج النفسي في النقد الأدبي بظهور مدرسة التحليل النفسي نهاية القرن التاسع عشر، والتي ارتكزت على أبحاث (سيغموند فرويد Sigmund Freud 1856/ 1939م) في علم النفس، "وخلاصة هذا التصوّر أنّ في أعماق كلّ كائن بشريّ رغبات مكبوتة تبحث دوما عن الإشباع، في مجتمع قد لا يتيح لها ذلك، وبالتالي يلجأ إلى إشباعها بكيفيات مختلفة، كأحلام النوم وأحلام اليقظة والأعمال الفنيّة وغيرها"[i]، ويعدّ الأدب، من وجهة نظر علماء النفس، تعبيرا عن الصراعات الداخلية بين الأديب وذاته الفرديّة، حيث يتيح له الإبداع الأدبي فرصة إخراج تلك الصراعات وكذا رغباته المكبوتة، وفق صيغ تعبيرية تساعده على خلق نوع من التوازن بين نفسه وواقعه.

انطلاقا من هذا الرأي، يعرّف (سيد قطب) العمل الأدبي في ارتباطه بالعنصر النفسي، قائلا: "العنصر النفسي أصيل بارز في العمل الأدبي، وإذا نحن عدنا إلى التعريف الذي اخترناه منذ البدء للعمل الأدبي، هو: التعبير عن تجربة شعوريّة في صورة موحية، وجدنا العنصر النفسي بارزا في كلّ خطوة من خطواته، فالتجربة الشعورية ناطقة بألفاظها عن أصالة العنصر النفسي، في مرحلة التأثّر الدّاعية إلى التعبير، والصورة الموحية ناطقة بألفاظها كذلك عن أصالة هذا العنصر في مرحلة التأثير الذي يوحي به التعبير "[ii]، والنص الأدبيّ، من هذا المنظور، يقوم على عنصرين بارزين مرتبطان بالعنصر النّفسي، هما: التجربة الشعورية والصورة الموحية، وكلاهما يمتح من نفس الأديب ونفس القارئ من خلال عمليّات التأثير والتأثّر.

2. النقد النفسي عند الغرب:

ظلّ الإيمان بأنّ جوهر الفنّ ودافعه الأساس هو المحاكاة راسخا في الفكر الغربي دهرا من الزمن، ويعدّ (فرويد) بأبحاثه في مجال التحليل النفسي من أوائل الباحثين الذين فنّدوا نظريّة المحاكاة، وأقرّوا بأنّ الدافع الحقيقي للفنّ نابع من نفس المبدع في حدّ ذاته، ومن منطقة اللاشعور تحديدا، وعنده أنّ "الفنّ تصعيد وتعويض لما لم يستطع الفنّان تحقيقه في واقعه الاجتماعي، واستجابة تلقائية لتلك المثيرات النائمة في الأعماق النفسية السحيقة، والتي قد تكون رغبات جنسيّة بحسب فرويد"[iii]، ويعدّ كتابه: تفسير الأحلام 1899م، إرهاصا للنقد النفسي للأدب، وقد تعمّق (فرويد) في دراسة وتحليل الشخصية، التي تعدّ أهمّ عنصر في مدرسة التحليل النفسي، وقسّمها إلى ثلاثة نظم تتحكّم في سلوك الإنسان، وهي بإيجاز:

- الهو ID: الجزء الغريزي في الشخصيّة، يوجد في النفس منذ الولادة، يتضمّن كل ما له علاقة بفطرة الإنسان وغريزته، لا يقيم اعتبارا للمنطق ولا للقانون الاجتماعي ولا للواقع في حدّ ذاته، وهو محكوم بمبدأ

اللذة Pleasure Principal الذي يسعى إلى إشباع الرغبة بكلّ أنواعها إشباعا فوريّا وإلّا زاد الشعور بالقلق والتوتّر.

- الأنا Ego: الجزء الواعي من الشخصيّة، يروم إشباع رغباته بشكل يقبله الواقع والمجتمع، يغلب عليه طابع القبول والتحضّر، كما يعمل على التحكّم في رغبات (الهو)، بفضل الوعي والإدراك اللذان تتمتّع بهما الذّات.
- الأنا الأعلى Super Ego: الجزء الأخلاقي من الشخصية، يتضمّن العادات والتقاليد والقيم والمثُل والمعايير الأخلاقية التي تكتسبها الذّات من البيئة التي تعيش فيها، وهو الذي يتحكّم في ما هو لائق أو غير لائق من جهة السلوكيات التي تصدر عن الذّات، فيُوجّهها نحو الأصوب والأمثل في عُرف المجتمع.

كما ميّز (فرويد) بين الشعور Conscience وما قبل الشعور Préconscience واللاشعور Inconscience، فالأوّل حالة مؤقّتة والفكرة المصاحبة له تظهر ثمّ تتلاشى، وقد يتكرّر ظهورها ثانية إن هي وجدت الشروط الملائمة، أمّا حين تنأى الفكرة عن الشعور فهي تتموقع في قسم ما قبل الشعور بحسب (فرويد)، ووجودها هناك وصفيّا لا ديناميكيّا، والثالث، أي اللاشعور، فهو يشمل الغرائز والرغبات المكبوتة بسبب قوانين المجتمع والأخلاق.

3. النقد النفسي عند العرب:

في تعريفه للعمل الأدبيّ يقول (سيّد قطب): "هو عمل صادر عن مجموعة القوى النفسية، ونشاط ممثّل للحياة النفسية... أمّا من حيث الوظيفة، فهو مؤثّر يستدعي استجابة معيّنة في نفوس الآخرين... وإذا استطاع المنهج الفنّي أن يفسّر لنا القيم الفنية الكامنة في العمل الفنّي، وبحيث نستطيع تصوّر وتصوير الخصائص الشعورية والتعبيريّة لصاحبه، فإنّ قسطا من هذا التصوير وذلك التفسير تتدخّل فيه الملاحظة النفسيّة، وهي أشمل من علم النفس كثيرا"[iv]، ذلك أنّ الخصائص الشعورية والتعبيريّة ترتبط ارتباطا وثيقا بنفس الأديب، كما أنّ ملاحظة تلك الخصائص مع تقديم تصوّرات لها، هي مسألة نفسيّة بحتة، وعليه فالملاحظة النفسية أعمّ من علم النفس الذي يبدو ضيّق الأفق إزاءها.

غير بعيد عن السياق ذاته، أفادت جماعة الديوان، مطلع القرن العشرين، من معطيات النقد النفسي للأدب، والذي كان رائجا عند الغرب في تلك الفترة، فكتب العقاد: ابن الرّومي؛ حياته من شعره، مستثمرا قواعد النقد النفسي (السيكولوجي) في تفسيره لشعر ابن الرومي، يقول: "إذا لم يكن بدٌّ من تفضيل إحدى مدارس النقد على سائر مدارسه الجامعة، فمدرسة (النقد السيكولوجي) أو النفساني أحقّها جميعا بالتفضيل، في رأيي وفي ذوقي معا، لأنّها المدرسة التي نستغني بها عن غيرها، ولا نفقد شيئا من جوهر الفنّ أو الفنّان المنقود"[v]، مؤكّدا على فضل المدرسة النفسانية في نقد الأدب.

وألّف (طه حسين) كتابين عن أبي العلاء المعرّي، معتمدا على بعض مباحث علم النفس في كشف المؤثّرات النفسية التي تحيط بحياته وشعره، يقول عنه (سيد قطب): "فأمّا في العصر الحديث فقد نما المنهج النفسي نموّا عظيما، نما على يدي الدكتور طه حسين، في كتابيه الأوّل والثاني عن أبي العلاء، وفي سائر كتبه، على نحوٍ ينقص في بعضها ويزيد في البعض الآخر"[vi]، حيث أحاط ببعض الجوانب والخبرات النفسية للمعرّي، وربطها بأدبه.

4. خصائص النقد النفسي ومبادئه:

- يجيب النقد النفسي عن أسئلة تتعلّق بكيفية الخلق الأدبي؟ ومدى تناسق مكوّناته الشعورية وغير الشعورية؟ وما هي المؤثّرات النفسية والدوافع الباطنيّة التي حفّزت الأديب على الكتابة؟ وكيف تلقّى القرّاء أدبه ومدى تأثيره فيهم من الجانب النفسي؟
- يربط النقد النفسي بين الأدب وبين حالات اللاوعي أو اللاشعور الفردي لدى الأديب، على شكل افتراضات وجود مكوّن باطني مجهول ومخفيّ، يتدخّل في تشكيل النص الأدبي وفق آليات نفسيّة معقّدة، تشتغل لحظة الإبداع.
- تشكّل الرغبات المحظورة والمكبوتة في لا وعي الذّات دافعا للأحلام، وهي نفسها تمثّل الدّافع الأساس للعمل الأدبيّ، حيث تكون الأحلام متنفّسا لتلك الذّات وملاذا لها، تحقّق من خلالها ما تطمح إلى تحقيقه في الواقع.

5. مآخذ النقد النفسي:

- قد يستحيل النقد الأدبيّ إن بالغ في الاعتماد على قواعد علم النفس، إلى تحليل نفسيّ للأدب يغيّب السمات الفنيّة والجمالية للعمل الأدبي، فتتساوى لديه كلّ النصوص بجيّدها ورديئها.
- بالغت مدرسة التحليل النفسي في جعل الأديب/الفنّان شخصا مختلّاً وعصابيّا بحاجة إلى جلسات تحليل نفسيّ أو تجربة مَعملية على حدّ تعبير (سيّد قطب)..
- لا يمكن ربط الأدب باللاوعي أو اللاشعور، كما لا يمكن أن تحرّكه الغرائز والأحلام، فالعوامل النفسية التي ذكرها (فرويد وتلامذته) قد تتوافر عند غير الأدباء، وليست بالضرورة مصدرا أو دافعا للإبداع، بل إنّ الأدب المقبول اجتماعيا يصدر عن قوّة شعوريّة واعية، مدرِكة وسليمة.